

تجاه البحر

ذهبتُ الى الاسكندرية أصطاف . . . أستغفر الله ! كبرتُ كلمة
 الاصطيف بوسع منها على ما يمكنني من سوانح الفراغ
 بل ذهبت لقضاء أيام التمسُّ فيها راحةً من عناء الأعمال . فلما
 بلغتُ النزلَ كان أولُ مطلبٍ لي أن أرى البحرَ ؛ فتمشيت اليه ، وحاذيت
 إفريزهُ الجديد ، متخطراً على راسي ، حتى انتهيتُ الى حدِّ الرصيفِ
 غرباً فعمدتُ الى صخرةٍ وثويتُ عليها

ثويتُ مفترجاً متخلياً متروحاً

غير أنني لم ألبث أن وجدْتُني قد أُخِذتُ

أُخِذتُ بمحاسن ما أرى ، واغتربتُ عن نفسي ساعةً . فلما عدتُ
 من غربتي ، حسبْتُني هيكلاً يتلَهَّب بين تلك البسطةِ المائيةِ التي تُحيطُ بي
 لم يكن إلا أن رسوتُ بجسمي مطلاً على ذلك الفضاء المتحشرج
 اللين ، المتضرب المتلون ، حتى مضى نظري طافياً فوق اللجج ، طاوياً
 أبعادها ، ملماً بأفاقها . وتدافعت خواطري متخذةً من أشعة النظرِ
 أسباباً ترتقي عليها أو سفائن تستقلها

فارتجتُ بجسمي كما تفارقُ النحلُ الخليةَ ، وانصرفتُ أشتاتاً بين

السماء والماء

إنَّ للخواطر جنىً عذباً تجنيه من آيات الماء الملح . . جنى معه

التعب، وتعبه هو الراحة، على حد قول القائل^(١)

إنما الراحة تبيد — لـ نوع التعب

والتداوي نصب — يُشفي به من نصب

ما صفة ذلك الجنى . . ؟

لا تكلفوها شاعراً قديراً، ولا كاتباً نحرياً، ولا حكيماً خبيراً؛ بل

ليسأل كل منكم نفسه عما أحسّ وتصوّر حين جلس إلى البحر مثل

تلك الجلسة

جنيت من تلك الرحلة الفكرية تبعاً مُريحاً، وأردت تدوين

ما كسبه ذهني من محصلها، فعجزت عن أقله، ولم يسعني سوى أن

أتنفس الصعداء بهذا النداء :

أيها البحرُ الشائقُ المهيّب !

ماذا يبلغ علمُ إنسانٍ جاهلٍ ضعيفٍ من أسرار جلالك وجمالك ؟

إذا طغت الموجة من أمواجك فاستجهمت خضراء، وانحدفت

رايةً شماء، تأخذ العنان بعفرتها البيضاء، فأبي فكرٍ يكبرها إكبارها،

وإن هي منك إلا العوبة تتجدد كل ثانية، وأعجوبة بينا هي الأولى إذا

هي الثانية

فاذا ملك النفس وولاً الحسّ إعظام تلك الآيات، فما الذي تفعله

الرّوعة بالمتطلع حين تهبط الراية، وتنفر لها الهاوية، فتقصف وهي

متداعية، حتى تنشّ نشيئاً، وقد تكسرت إلى ألوف أجزاء من الماس

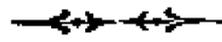
(١) هو نفس صاحب المقالة

المتشعب واللؤلؤ والمختلف النضار الساكب أو المتبسّط والجمان المصوغ
أو المتناثر

فاذا التمس العقلُ مزيداً وتعمق الى مضطربِ الدُّرِّيراتِ فما حيرتهُ
ودهشتهُ لدى كل قطرةٍ ، وفي القطرة جزئياتٌ لا تُعدُّ : هذه تبسمُ
ورديةً ، وتلك ترقص لآزوردية ؛ إحداها تحجلُ محرّةً ، وأختها ترحفُ
مخضرةً ؛ بعضها ينظرُ باللُّجينِ شزراً ، وبعضها يُضمرُ النارَ ويصفو مفتراً
أيها البحر الشائقُ الجميلُ !

تجاهك لا يحسنُ إلاَّ التعجبُ والسكوتُ ؛ وإنَّ مع السرورِ برؤيتك
لأسفاً دويّاً من أنك أنت أيضاً حيٌّ وأنت أيضاً ستموت

فهلبل مطرانه



أين أقام في مصر

العلماء الذين صحبوا نابليون بونابرت

كان مسيو جورج لجران Georges Legrain قد قدّم الى المجمع العلمي
المصري في شهر مارس سنة ١٩١٣ درساً عن منزلٍ في القاهرة عاش فيه فريقٌ
من العلماء الذين رافقوا بونابرت الى مصر ، وهذا المنزل لا يزال محفوظاً الى اليوم
وهو قرب ميدان الناصرية في شارع الكومي عند آخر حارة حسن كاشف الواقعة
بين مدرسة الناصرية ومكتب البوستة . وكان في سنة ١٧٩٨ إبّان الحملة الفرنسية
ملكاً لابراهيم السناري الأسود ، وهو اليوم ملك الأوقاف . وقد تمنى مسيو
لجران على المجمع العلمي المصري أن يتخذ الطرق اللازمة لحفظ هذا الأثر من
الدمار . فأجبت أمنيته وعيّنت لجنة « حفظ الآثار العربية » مبلغاً من المال للشروع

في ترميم المنزل . وفي آخر أغسطس الماضي اجتمع في المنزل نفسه فريق من الجالية الفرنسية يتقدمهم مسيو فوشه وكيل معتمد فرنسة ومسيو كرترون قنصلها في مصر فألقى عليهم مسيو ليجران خطاباً (١) تلخصه في ما يأتي :

هذا المنزل القديم الآن كان حديث البناء عندما فتح القائد بوناپرت مصر سنة ١٧٩٨ . فان البنائين والرسامين كانوا قد أتموا تشييده وتقسيمه منذ مدة يسيرة . وهذه المطرفة الناشفة الآن كانت تُلطف الهواء ؛ والطنافس لثينة تفرش هذا الرخام الأبيض ، والمقاعد حول هذه القاعة تنتظر سيد المنزل ، وهو ابرهيم السناري الأسود وكيل مراد بك الشهير الذي كان ينازع ابرهيم بك الكبير سيادة مصر في ذلك العهد وكان ابرهيم السناري الأسود كما يدلُّ اسمه قائم اللون أميل الى السواد منه الى السمرة . ويؤخذ من تاريخ الجبرتي أنه وُلد في دقله حوالي سنة ١٧٧٠ ؛ فهجر بلاده وهو يافع ، ونزل النيل حتى بلغ القاهرة . فلم يجد فيها سبيلاً لكسب معاشه ، فتابع السير حتى المنصورة حيث اضطر ان يكون بواباً في أحد المنازل

على أن ابرهيم كان على جانب من الذكاء فتعلم القراءة والكتابة ثم التركية والحساب . وانصرف من ثم الى الفنون السحرية ، فأصبح أشهر من « قال البخت » أو أعدت الطلاسم والتعاويد . ونال حظوة في عيني المملوك الشابوري ، فاستصحبه الى الصعيد ، حيث توصل ابراهيم الى التقرب من مراد بك . فكان ذلك بداية اقترار ثغر الدهر له . ولم يلبث

(١) أهدى الينا صورة هذا الخطاب مسيو بول تربييه صاحب مكتبة جيله :

أن أصبح صديق سيده وموضع ثقته ، فغمرة هذا بالهدايا والنعم . ولما نزل مراد في الجزيرة (في السراي التي قامت محلها اليوم اصلاحية الاحداث على طريق الأهرام) عين السناري وكيلاً له في القاهرة . فكان ابراهيم يفاوض أمراء المماليك باسم مولاه ، وصار منذ ذلك العهد مسموع الكلمة بعيد النفوذ

وكان له في القاهرة أبنية عديدة عندما صحّت عزيمته على بناء هذا المنزل الذي نحن فيه ، ولم يدخر وسيلة في توفير أسباب الهناء والرخاء في منزله الجديد ، ويمكننا أن نتثبت ذلك بالعيان مما بقي أمامنا من الآثار ، وان كان قد ذهب معظمها ولعبت به يد الدهر التي لا تُبقي ولا تذر . ولو قدرت هذا الجدران على الكلام لاقادتنا أنه عند انتشار خبر وصول الفرنسيين الى القطر بقيادة الجنرال بوناپرت واستيلائهم على الاسكندرية ، ترك مراد بك مزاحمة ابراهيم بك يحشد رجاله بالقرب من بولاق ، وجمع هو جموعه وزحف لمقابلة الفاتح . وفي ١٤ يوليو ١٧٩٨ تقابل الفريقان في شبراخيت ، فولى المماليك الأدبار . وبعد ثمانية أيام نازلهم بوناپرت في انبابة حيث توجد الآن المحطة الحالية . وفي مساء ذلك اليوم نام بوناپرت في سراي مراد بك عدوه المغلوب . أما مراد بك ففرّ الى الصعيد ؛ ولحق ابراهيم السناري بسيده ولم يفارقه مدة الثلاث سنوات التي ظلّ يناوش الفرنسيين أثناءها . وهكذا ترك السناري المنزل الذي نحن فيه

وعهد بوناپرت بعد انتصاره هذا الى لجنة في أن تختار منزلاً له

ولأركان حربه . فوقع اختيارها على منزل محمد بك الألفي وكان قد تمّ بناؤه منذ ثلاثة أسابيع فقط ، وكان هذا المنزل قائماً شمالي ميدان الأذربكية بين فندق شبرد والنادي الفرنسي الحاليين . ولا صحة لما يُروى عن أن في القاهرة اليوم منازل عديدة قد سكن فيها بوناپرت . ولكن المرجح أن القائد الفرنسي ذهب الى الديوان الأكبر الذي لا يزال منه بعض حجر في شارع الرويحي وشارع البواكي فوق محل سيرو؛ وقد زار بوناپرت أيضاً منزل الشيخ السادات والشيخ البكري ، ولكني لم أجد قط ما يدلّ على أنه اتخذ لسكنه محلاً غير منزل النبي بك

أماً الحاشية العسكرية والملكية فقد اتخذت لسكنها سرايات البكوات والماليك حول الأذربكية ، وقد درست آثارها كلها

وكان مع الحملة العسكرية بعثة علمية مؤلفة من ١٣٥ عضواً ولم يكن بدّ من إيجاد منازل لهم وللمجمع العلمي المصري الذي ألقوه . فوقع بوناپرت أمراً صريحاً بهذا المعنى يقضي باسكانهم بقرب المعسكر العام بالأذربكية . ولاندري ما الذي حال دون تنفيذ ذلك الأمر . على أن المقررات « موج » و « برتوله » و « كافارلي » قصدوا الى السيدة زينب ؛ واحتلوا منازل عديدة كان قد تركها الماليك أنصار مراد بك

وكان أجمل هذه بنايات منزل حسن بك الكاشف الذي قامت على أقاضه مدرسة الناصرية الحالية . وكان تجاه هذا المنزل قصرٌ نفخ لقاسم بك حيث يوجد الآن مكتب البريد الجديد ، ومن الجهة الثانية للشارع كانت حديقة متسعة الأطراف والى جانبها سراي لعلي بك وقد

محا معول المهادمين كل هذه الآثار، ولم يبقَ إلا منزل إبراهيم السناري الذي نحن فيه الآن

هذه هي المنازل التي سكنها أعضاء لجنة العلوم والفنون التي رافقت الحملة الفرنسية . فأتخذ قصر حسن بك الكاشف مقراً للمجمع العلمي، وحوّلت حديقة قاسم بك الى معرض للتاريخ الطبيعي ، فجمع فيها العالم « جوفروي ساتهيلير » عدداً كبيراً من الحيوانات ، واستنبت البذور التي قد استحضرها من فرنسا . وكان هناك أيضاً مكتبة عمومية يرتادها من يشاء ، ومعامل كيمائية كان يُجري فيها العالم برتوله تجاربه ويلقي دروسه ، فأتمها الكثيرون من الوطنيين وأخذوا يدرسون مدينة الغرب . وأقام « كوته » الى جانب المعامل ورشاً أخرجت للمستعمرة الجديدة كل ما تحتاجه من آلاتٍ وأدواتٍ ومعدّات . وكان قصر قاسم بك من نصيب المغني « فيلوتو » الذي درس أصول الموسيقى العربية على أربابها ، وألّف فيها وصنّف

وسكن سائر علماء الحملة من فلكيين ومهندسين ومستشرقين وغيرهم

حول تلك البقعة

أما منزل السناري هذا فوضع تحت تصرف المصوّر « رينو » لأن هذه القاعة الفسيحة كانت في غاية المواقفة . وكان بوناپرت قد عهد الى ذلك المصوّر في تصوير أعيان البلاد ووجهاؤها . وفي هذا المكان رُسمت صور الشيخ السادات والشيخ البكري وغيرهما من أعيان الديوان الكبير والديوان الصغير . وكان ناپوليون وهو منفيٌّ في جزيرة القديسة هيلانة

يذكر الرسوم البديعة التي زين بها المصور ريفو سراياه في الأزبكية وحدث لريفو في هذا المنزل حوادث متنوعة فكان السذج ينظرون إليه كأنه ساحر ويشيعون أن أعضاء بشرية معلقة الى حائط القاعة التي يسكنها مشيرين بذلك الى الصور العديدة التي كانت عنده .
واتفق يوماً أنه أراد تصوير أحد النوبيين القادمين الى مصر ، فرضي النوبي بذلك ولما جلس المصور أمامه ، ومزج الألوان ، وأخذ يرسم على القماش تقاطيع الرجل وهيئته ، قام هذا مذعوراً وخرج مستجيراً من شر ابليس

وكان جماعة العلماء يعيشون في راحة وصفاء منصرفين الى أبحاثهم ودروسهم ، الى أن حدثت فتنة القاهرة في أواخر أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، فوجدوا أنفسهم منفصلين عن المعسكر العام . وكان عندهم شيء من السلاح للدفاع ، على أنهم كانوا قليلي الخبرة في استعماله ؛ ففكروا هنيهة في أن يتركوا مقرهم ويلجأوا الى الأزبكية ، ولكنهم خافوا على المكتبة والمجموعات العلمية من أن تذهب فريسة الثائرين ، فأثروا البقاء حيث كانوا وإن عرّضوا حياتهم للخطر ، وتحصنوا في المنازل وأقاموا الخفراء عند مدخل شارع حسن كاشف وقرب سبيل السيدة زينب ، الى أن تمكن الجنرال « لان » من نجدتهم واعادة المياه الى مجاريها

وبعد سكون الفتنة رجع العلماء الى أعمالهم حتى يناير سنة ١٨٠٠ فسافروا الى الاسكندرية على نية الرجوع الى فرنسا بموجب اتفاقية العريش . فحال دون ذلك نقض الاتفاقية . ثم حدثت موقعة المطرية ،

وثورة القاهرة الكبرى وعودة ابراهيم بك الى العاصمة فاضطراه الى مغادرتها لمعاودة القتال . وهكذا رجع العلماء ثانية الى المنازل المتقدم ذكرها ، ولكن إقامتهم هذه المرة كانت أشبه شيء بالمنفى . وجاء الطاعون فزاد موقف الفرنسيين حرجاً . ولما غلب القائد « مينو » وتقهقر الى الاسكندرية ، أصدر القائد « بليار » نائبة في القاهرة الأمر الى العلماء بأن يوافوه الى القلعة حيث يكونون بتأمين من الطواريء . فرفضوا بتاتاً لأنهم كانوا يشعرون بأنهم بين أصدقاءهم الوطنيين في حرز حريري . ولم يذكر العلماء قط أنهم وجدوا بين المصريين رجلاً واحداً أساء اليهم أو لم يحسن معاملتهم . وظلوا كذلك الى أن جلت الحملة الفرنسية نهائياً عن الديار المصرية

أما ابراهيم السناري فانه عاد الى منزله هذا ، ولكنه لم يذق فيه الراحة طويلاً ، لأن القائد العثماني لم يدخر وسعاً في إبادة سلطة المماليك وتوطيد سلطة الباب العالي في مصر ، وقد روى لنا الجبرتي مقتل السناري في الاسكندرية . وكان هذا الرجل اليوم نسياً منسياً لولا ان فريقاً من العلماء احتلوا منزله ، وهم الذين عرفوا مصر القديمة الى العالم ، وذلك لخير العلم والإنسانية

سئل اعرابي : هل لك في الزواج ؟
فقال : لو استطعت لطلقت نفسي